القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

بناء الدولة

العوامل النافذة في بناء الدولة : قد يسأله الباحث الاخلاقي ان يعلم ان اتقد البواعث اثراً في تأليف الدولة باعث انانيّ مزدوج مؤلف من عاملين اثنين جمع الثروة وحب التسلط على الناس. ولكن ماذا يفيد الاستياء وماذا تنفع الحوقلة ومعظم الاوضاع التي يباهي بها البشر كوضع الزواج الذي شرحناه يستدعي حقيراً اذا فكر مظلم ثم لا يلبث ان ينطبع بطابع الانسانية اللاّ؟ ويلوح لنا ان الاستئثار والطمع والخوف والشهوة والظلم والانانية وغير ذلك من البواعث الطبيعية كل ذلك كان له الشأن الخطير في تأسيس اوضاعنا الاجتماعية مادية كانت ام معنوية

وقد دلّ التاريخ على ان عامل جمع الثروة كالكسب الذي يكسبه الغزاة من ماشية وسائمة واماء وعبيد يؤول الى تقوية الروابط الحكومية وتأييد قوة الفاتحين ونفوذهم بالنظر الى ما تجلبه الدولة من المنافع المادية ناهيك بالحاجة التي يشعر بها سواد الناس الى النظام واجراء العدل في توزيع هذه المنافع — وهو وظيفة الحكومة طبعاً

ومن الامثال التي نضربها على ذلك ان الملك عبد العزيز بن سعود ملك نجد والحجاز اليوم كان في بداءة القرن الحاضر لاجئاً الى الكويت بسيطاً عند اميره الشيخ مبارك بن الصباح لان آل الرشيد كانوا قد احتلوا مواطن آبائه واجداده وانتزعوا السلطة منهم وابن السعود هذا هو رجل شجاع ذو عزيمة صادقة وطموح وثاب فوطد النفس على العودة الى نجد واخراج آل الرشيد المغتصبين منه فدبر امره في ليل حتى تمكن من اغتيال عامل الرشيد في فراشه وبمساعدة كمين ابقاه خارج القصر تمكن من ترسيخ قدمه في البلاد ثم اخذ ملكه في التكامل والاتساع الى ان امتد الى البحر الاحمر غرباً وسورية والعراق شمالاً ولكن هذا الاتساع ما كان ليتم لولا المنافع التي جناها الغزاة الفاتحون من جنوده واعوانه . فمزج هذه المنافع الاساسية بدعوة روحية جذابة كالدعوة الى التنزيه ومحاربة الشرك ولا سيما الاستيلاء على اموال المشركين جزاء لهم كل ذلك ألّف من همج النجديين خصوصاً ممن يدعون « غطغطاً » جيشاً لجباً متحمساً اكتسح هذه الاصقاع المترامية الاطراف ولم يتورع ان يطبق على الكثير

من مكانها قاعدة القتل العام — ولو على ابواب مكة — باسم التوحيد والتطهير من الشرك فالقارىء يرى من هذا المثال الملموس كيف ان الباعث الاول على تأسيس هذه المملكة المترامية الاطراف هو باعث طبيعي يرتكز على شعور بالثأر متأصل في العرب ، فلما ذر عليه التاثرون به فلفلاً وبهاراً من دعوة اخلاقية خيالية كمالية صنع طعمه وصار لذيذاً حتى في افواه الآكلين المتأنقين ناهيك بالشرهين الشرسين . ولاحظت في المدد التي اقمتها في الصحراء ان كل دعوة كائنة ما كانت متى وضعت عليها التوابل الروحانية المقبلة وكان من ورائها نفع مادي تلاقي رواجاً عظيماً ولا سيما عند القبائل التي تشكو القلة وتعاني المحل . ولا نخطىء اذا نحن قلنا ان المؤمنين بمثل هذه الدعوة عن اخلاص ظاهر لا تعازجه المنافع المادية هم الاقلية . واما سواد الناس فهم لا يدركون الكمال عادة الا اذا كان مصلحاً طعمهُ بالمنافع فلا يسلمون مثلاً الا اذا اعتقدوا ان تحت السعادة في الدنيا ديناراً وهاجاً وفي الآخرة قصراً حافلاً بالحور والدين

ويمكننا ان نضع القاعدة العامة الآتية عن الاقوام التي لا تزال على الطريقة النطرية العمياء في نموها — يعني انها لم تدخل بعد في طور الارتقاء الغائي الذي يكون التحول الاجتماعي فيه غاية يدركها الناس بعقولهم — وهذه القاعدة هي ان العامل الذي يذر على الباعث المادي الاصلي ليجعل طعمهُ لذيذاً هو مقياس ارتقاء الشعب الذي يذره . بل ان هذه القاعدة تنطبق على اي شعب كان ما دام سواده كرة تتقاذفها صوالج الدعايات المزوقة فتتلقفها ايدي الملاعبين

تأثير الدين في تأسيس الدولة : ومن العوامل المتجلية في تأسيس كيان الدولة العامل الديني منذ الاعصر القبلية الاولى الى اليوم فقد ايد الدين الاستقرار السياسي وساعد على حفظ النظام بما اتاه من تعضيد الشيخ الزعيم وتثبيت الفاتح العظيم وذلك للمصلحة التي توخاها من مقامهما الرفيع ولا يزال الملوك والقواد الى يومنا هذا حتى في ارقى البلدان الغربية مظهر عطف الاكليروس ومحل تأييده . وزاد في سلطة الشيوخ والفاتحين في الاعصر السحيقة ان الكهنة كانوا يجمعون الى الخوف من الآلهة والفزع من الاصنام والارواح الخوف منهم . وقد مثل الشيخ الزعيم والفاتح العظيم سلطة هذه المعبودات في القرون الاولى كما مثلاها في القرون الوسطى فلم يكن الفرق كبيراً بين فرعون الرب الاعلى وشار لمان ظل الله على الارض . وبالانتقال من الوضع القبلي البسيط الى الوضع الدولي المعقد انتقل الدين من شكله المحلي الاهلي الى شكله القومي العام كما حدث عند الاسرائيليين اذ تغلب دين احد الاسباط على اديان الاسباط الاخرى فاكتسحها ومن ثم صار الدين اليهودي القومي ، وحينئذٍ انتقل (يهوه) من بقعته المحدودة الى مقامه الشامل — من صنم سبطي محلي لا يختلف كثيراً عن اللات والعزى ومناة الى اله قدير يحكم على المشارق والمغارب

اشراك الآخرين في الحكم : وغني عن البيان ان اتساع القبيلة على الطريقة التي ذكرناها ادى الى رغبة الناس في الحصول على النظام والتمتع بالحماية تحقيقاً للمصلحة العامة لكن القيام بجميع الوظائف

التي يقتضيها هذا التحول ينعذر على اي فرد من الافراد ولو كان من الجبابرة فلو اصرّ الشيخ النوري بن شعلان في اثناء تقدمه او اصرّ المرزقة من اعوانه ممن يتمتعون بموالاة مباشرة على ان يبقى هذا الامر جميعاً في قبضة يده لاختل النظام وتألب عليه الناس في الداخل والخارج. لاجرم انهُ مضطر الى اشراك غيره في الحكم من انتداب من يساعده في التشريع والقضاء والتنفيذ لان سياسة جمهور كبير من الناس والاشراف على اعماله ومعاملة افراده بالعدل هي كلها امور تدل على التعقد الذي طرأ مما لا يقوى الشيخ الزعيم على معالجته كما يعالج الوالد الشؤون العائلية فلا بد والحالة هذه من اختيار المنتدبين الصالحين للاعمال وهذا الانتداب يحدث تنوعاً مستمراً في الوظائف الحكومية وهو تنوع يدل على طريقة تأليف الدولة

ومن اكبر البلايا التي اصيب بها الحسين بن علي ملك الحجاز وزعيم الثورة العربية طمعهُ في ان يبقى «شيخاً زعيماً في القبيلة» يتناول الاشياء كبيرها وصغيرها بقبضة يده مما كان سبباً عظيماً في انهيار ملكه. وعسى ان يتعظ الآخرون من ملوك العرب ممن يجرون على طريقته الطرمة العتيقة هذه اما بسائق الغفلة او بتحريض المرزقة من حواليهم. وفي وسعنا وضع القاعدة الآتية وهي ان كل قطر متسع منشعب يبغي به الوالي المحافظة الى درجة انهُ يحاول البقاء مقتصراً على سلطة «الشيخ الزعيم» او على السنة التي اسلفها بمفرده من غير اعتبار للطوارئ ولا اشراك غيره معهُ في الامر هو قطر رجعي يطلب العودة الى الاوضاع القبلية الاجتماعية البائدة

النظرية الشرعية في تعليل الدولة: كما تولدت الاسرة من سعي الرجل والمرأة لأن يعيشا معاً بالالفة والتعاون ويتولدا الاولاد ويحضناهم كذلك الدولة نشأت من سعي الناس لأن يعيشوا معاً متكاتفين متآلفين تحقيقاً لغايات مشتركة يطلبونها فلم تكن الدولة والحالة هذه بداية المجتمع الانساني ولا الغاية الاختيارية التي نشدها الانسان بمحض اختياره وبعد نظره بل هي احدى الوسائل المتأخرة التي توسل بها بفطرته وبطبيعته للحصول على الهناء الاجتماعي وذلك بما استجد من نظام معين خضع له وهذا النظام هو النظام السياسي

فالدولة اذن هي فرع من فروع تلك الشجرة الاجتماعية الباسقة التي انبتت فروعاً اخرى من أوضاع خطيرة مثل وضع الزواج والاقتصاد والدين. وكما أن هذه الاوضاع متأصلة في المجتمع ومشتبكة به اشتباك السدى باللحمة كذلك الدولة هي ظاهرة من ظواهره الجوهرية. ولا يظن احد ان تعيين الزمن الذي بدأت فيه الجماهير بالخضوع للادارة السياسية والاشراف «الحكومي» العام هو أهون من تعيين الزمن الذي انفصل فيه الرجل بالمرأة لتأسيس الاسرة بل كلاهما حادث مع المجتمع وملازم له. وليست حاجة المجتمع الى التعاون والنظام والحماية العامة دون حاجته الى استيلاد الاولاد والا لما اختلفت الجمعية البشرية كثيراً عن قطيع من الجواميس يرود المستنقعات في الهند او سرب من القردة يجوب الغابات في افريقيا